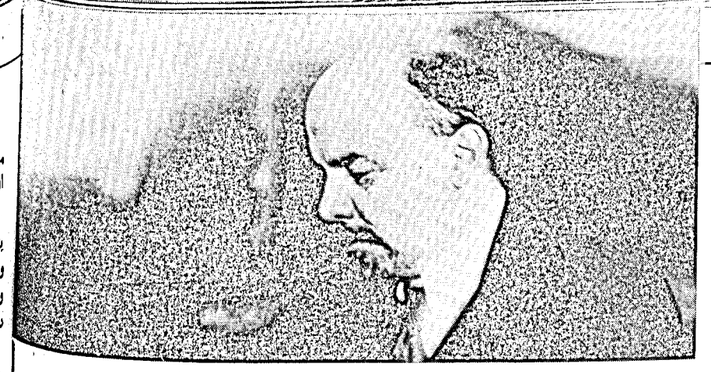

في الأول من أيار المجيد

الطبقة العاملة العربية

والاتجاهات التي تتنازع حركة البروليتاريا العالمية

بقلم هاشم عليش محسن

رغم اهمية العرض التاريخي لوقائع واحداث الاول من ايار ، ومتابعة التطورات التي عاشتها حركة الطبقة العاملة العالمية المجيدة ... رغم ذلك فاننا اليوم سنركز البحث حول اوضاعنا الراهنة ، وأن تعرضنا الى التاريخ ، فمن اجل الاستشهاد والتدليل ، لكي نبقى عند حدود قدرة « الهدف » على استيعاب ما يمكن ان يقال في هذه المناسبة المجيدة .

ان وقائع الاول من ايار واحداثه الدامية ، لم تكن سوى الخطوة الاولى ، على طريق الالف ميل التي ما تزال الطبقة العاملة العالمية تواصل السير فيها ، مواصلة حققت انجازات كبرى ، على طريق ثورتها الاشتراكية الطويل . واذا ما تذكرنا ان الاول من ايار لم يكن ممكنا حدوثه ، بل ما كان يمكن تكريسه عيدا عالميا للطبقة العاملة العالمية ، لولا نضال الطبقة العامله المنظم والهادف ... اذا ما تذكرنا ان شيئا اسمه الاول من ايار يكتسب كل هذه المعاني التي يكتسبها اليوم ، لم يكن موجودا ، لولا الاضراب العام الذي شنته الطبقة العاملة الاميركية عام ١٨٨٦ . اذا ما تذكرنا ذلك فاننا مطالبون بان نستخلص معاني هذا اليوم المجيد ومضامينه ، فما هي هذه المعاني التي ينبغي ان نستخلصها ؟ :

اولا — الاول من ايار يوم للعمل الثوري :

ان اختيار الاول من ايار عيدا للطبقة العاملة العالمية ، لم يكن الهدف منه ان يحصل العمال على يوم راحة يستجم فيه العمال ، ويخلدون الى الراحة اطلاقا ، وانما اختير الاول من ايار ليكون يوما لاستعراض مسيرة الطبقة العاملة العالمية الكفاحية الثورية ، وتكريس التضامن البروليتاري الاممي ضد الخصوم الطبقيين والقوميين ، انه يوم عمل ثوري من ايام النضال البروليتارية .

ان الاممية الثانية ، وبتعبير ادق المؤتمر التاسيسي للاممية الثانية ، الذي انعقد في تموز — يوليو — عام ١٨٨٩ ، حين قرر ان يكون الاول من ايار يوما عماليا عالميا ، قد حدد مضمونه باعتباره يوم تضامن بروليتاري عالمي ، ونضال ثوري من اجل تحقيق اهداف الطبقة العاملة التي يتصدرها هدف استلام السلطة !.. ذلك ان المؤتمر التاسيسي للاممية الثانية ، قد اقر ان الحركة العمالية في البلدان الراسمالية يجب عليها ان تكرس نضالها السياسي من اجل استلام السلطة . وفي سبيل انضاج الظروف الموضوعية او استكمال الشروط الذاتية القادرة على تحقيق هذا الهدف ، فان الاحزاب العمالية والاشتراكية في مختلف البلدان مطالبة بان توسع دائرة نضالها من اجل جعل يوم العمل ثماني ساعات اولا ، ومنع تشغيل الاحداث ثانيا ، ومنع اشتغال النساء في فروع الانتاج المضرة بجسم المراة ثالثا ، وتحديد يوم عمل الشباب بست ساعات رابعا ، وجعل الاجر متساويا للعمل المتساوي خامسا ، والوقوف بشدة ضد سياسة الفتوحات التي تتبعها الحكومات البورجوازية سادسا ، واخيرا تكريس الاول من ايار ليكون يوما تراجع فيه الطبقة العاملة في كل مكان مسيرتها النضالية مراجعة نقدية ثورية ، وتستعرض قواتها ، استعراضا لا يشكل تحديا للطبقة البورجوازية ولكل الذين يبيحون استغلال الانسان لاخيه الانسان فقط ، وانما حدد الاول من ايار ليكون رمزا للعنف الثوري الذي ينبغي ان يتسم به كفاح العمال الطبقي ردا على العنف الرجعي الذي تمارسه الطبقات الرجعية ، ولعل انتقاد معلمي الطبقة العاملة للانتهازية في صفوف العمال دليلا على صحة ما نقول .

ان الاول من ايار ، يوم خلقته حركة العمال بعد ان عمدته بالدم ، خلقا تاكد معه ان التغلب على العنف الرجعي ، وحتى مواجهته غير مجدية بغير اسلوب العنف الثوري المنظم . ولم يكن لينين على خطا ابدا حين اكد على « ان طبقة مضطهدة مظلومة لا تسعى الى تعلم استعمال السلاح ، الى الحصول على السلاح ، ان هذه الطبقة المضطهدة لا تستحق ان تعامل الا معاملة العبيد . والحال اننا لا نستطيع ان ننسى — الا اذا غدونا مسالمين برجوازيين او امسينا انتهازيين — اننا نعيش في مجتمع طبقي ، وانه لا خروج منه ولا يمكن الخروج منه الا بالنضال الطبقي . وفي كل مجتمع — سواء اكان قائما على العبودية ، ام على القنانة ، ام ، كما هي الحال اليوم ، على العمل المأجور — تكون طبقة الظالمة مسلحة » (١) .

«ان الطبقات الرجعية هي اول من يلجا الى العنف، الى وضع الحراب على جدول الاعمال» (٢). وقد تاكدت هذه الحقيقة في قمع كومونة باريس عام ١٨١٧ وفي قمع العمال في الاول من ايار عام ١٨٨٦ ، وفي سائر الاعمال الوحشية التي ترتكبها الطبقات الرجعية باستمرار وفي كل مكان لها نفوذ فيه .

ان مجزرة شيكاغو التي سفكت فيها دماء العمال، حدثت بسبب الاضراب العام الذي اعلنه اتحاد العمل الاميركي تنفيذا للقرار الذي اتخذه عام ١٨٨٤ والقاضي باستخدام الاضراب العام باعتباره وسيلة هامة من وسائل العمال لارغام البورجوازيين على الخضوع لارادة العمال والنزول عند رغباتهم .

ومعلوم ان الاضراب العام ، عمل ثوري بكل معنى الكلمة ، ولذلك فان تحقيقه يعتمد على وحدة الطبقة العاملة وعلى نضج وعي العمال وتصميمهم على مواجهة الطبقة البورجوازية واجبارها على التسليم بمطالبهم . انه الوسيلة المجدية التي يدلل استخدامها على قوة الطبقة العاملة ومتانة وحدتها وصلابة عزيمتها . والحزب الشيوعي الذي يتمكن من احكام قبضته على زمام حركة الطبقة العاملة ، ودفعها للاضراب العام ينبغي عليه ان يستخدم الاضراب العام للاطاحة بالسلطة البرجوازية ، وقد نجح الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في الوصول الى السلطة بالاستناد الى الطبقة العاملة واضرابها العام . ومن البديهي ان العمال ينبغي ان يكونوا مسلحين لكي يجعلوا من اضرابهم قوة حاسمة تتجاوز حدود ايقاف الانتاج من اجل زيادة الاجور وتخفيض ساعات العمل .

والان ، فان المعنى الاول لهذا اليوم العظيم، يتجلى في كونه رمزا لنضال الطبقة العاملة العالمية والتضامن الاممي. ولذلك تكرس هذا اليوم بالمظاهرات والاضرابات في مختلف انحاء العالم ، الامر الذي دفع انجلز لان يهتف :

« ان عمال العالم متحدون الان — ١٨٩٠ — اتحادا حقيقيا فعليا ، الا ليت ماركس الى جانبي ليرى بعينيه كل هذا » (٣) .

ثانيا — حتمية انتصار الحركة التي تحمل راية الاول من ايار

« يا عمال العالم اتحدوا ! — حينما القينا هذه الكلمات في العالم لم تتجاوب معنا سوى بضعة اصوات فقط ، وكان ذلك منذ اثنتين واربعين سنة ، اذ ذاك على اعتاب الثورة الباريسية ، اول ثورة خاضتها البروليتاريا بمطاليبها الخاصة، ولكن لم يعن يوم ٢٨ ايلول — سبتمبر — عام ١٨٦٤، حتى كان العمال من اكثر اقطار اوروبا الغربية يتحدون في الاممية الاولى جمعية الشغيلة العالمية ذات الذكرى المجيدة . ان الاممية نفسها لم تعش سوى تسع سنوات . اما التحالف الابدي الذي انشاته بين عمال جميع البلدان ، فليس ادل من يومنا هذا على انه ما يزال موجودا ، وانه الان اقوى منه في اي وقت مضى . ففي اللحظة التي اكتب فيها هذه السطور ، تستعرض البروليتاريا الاوروبية والاميركية قواها الكفاحية التي تنتظم لاول مرة في جيش واحد وتحت علم واحد ، وفي سبيل هدف مباشر واحد ، هو تحديد يوم العمل العادي بثماني ساعات تحديدا مشروعا » (٤) .

لقد كتب انجلز هذا الكلام ، في الاول من ايار عام ١٨٩٠ ، اي يوم احتفل العمال في عيدهم لاول مرة . ونحن الان في الاول من ايار عام ١٩٧٥ ، حين نطالع هذا الكلام ، ونرجع بتصورنا الى ما قبل سنة ١٨٨٩ لنشاهد انجلز وهو يهتف « الا ليت ماركس الى جانبي ليرى بعينيه كل هذا ! » ، تعبيرا عن شعوره بالارتياح للمستوى الذي بلغته حركة الطبقة العاملة ، بعد انصرام اثنتين واربعين عام على صدور البيان الشيوعي ، الذي حمل شعار «يا عمال العالم اتحدوا ! » ... اقول حين نعود الى ذلك اليوم لنشاهد رفيق ماركس العظيم وهو يهتف تفاؤلا لان الطبقة العاملة ارتقت بمستوى نضالها الى حد حشد قواها العالمية من اجل « تحديد يوم العمل العادي بثماني ساعات » ، فماذا ينبغي لنا ان نقول نحن نعيش الانتصارات العظيمة التي حققتها الثورة الاشتراكية في الامس والتي تحققها اليوم في كمبوديا وفيتنام ؟

وهل نبالغ اذا ما قلنا ان الحتمية التاريخية التي تحدث عنها ماركس قد اصبحت احدى الحقائق المسلم بها ، رغم المسافة المتبقية من الطريق الذي يتحتم على الطبقة العاملة ان تقطعه حتى تبلغ هدفها النهائي بشمول الثورة البروليتارية للعالم كله ؟

ان المغزى الثاني للاول من ايار في ايامنا هذه ، يتجلى في الانتصارات المتتالية التي تحققها الطبقة العاملة العالمية وفي الهزائم المتلاحقة التي تمنى بها البورجوازية الرجعية العالمية ، تجليا يتاكد معه الاستنتاج القائل : ان الحركة العمالية التي اختتمت نشاطها الثوري ببيان لم يكن حظه من التاييد سوى بضعة اصوات رددت صداه عام ١٨٤٨، والتي تقف اليوم في مركز العصر وتقرر اتجاهاته الرئيسية لدرجة ان البورجوازية العالمية لا تملك سوى تعليل نفسها بالصبر والسلوان امام هزيمتها في الهند الصينية ... ان حركة هذا شانها ، وهذه مؤشرات الخط البياني لمسيرتها ، لا بد ان يكون انتصارها النهائي على البورجوازية، امر مؤكدا وغير قابل للشك اطلاقا .

ثالثا — لكي تكون المراجعة مجدية :

ان الحديث عن معاني الاول من ايار ، والقول انه رمز للنضال البروليتاري الثوري العنيف ، ومؤشر لحتمية الانتصار النهائي للثورة الاشتراكية التي تقودها الطبقة العاملة .. ان مثل هذا الكلام لكي يكون له مضمون ثوري ، لا بد ان ينطلق من وجهة النظر التي تقول « ان اتفاق تبدل الظروف والنشاط الانساني لا يمكن بحثه وفهمه فهما عقلانيا الا بوصفه عملا ثوريا » (٥) .

اذا كانت وجهة النظر العلمية تقول : صحيح ان « المجتمع لا يستطيع ان يتخطى بقفزة ، ولا ان يلغي بقرارات ، مراحل تطوره الطبيعي ، ولكنه يستطيع اختصار مدة حمله وتخفيف آلام وضعه » (٦)، بحكم كون الناس هم الذين يصنعون تاريخهم وان « تحرير الطبقة العاملة لا يمكنه الا ان يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها » (٧) ، ولهذا فاننا مطالبون باستمرار ان ندرك بان الشيوعيين يترفعون « عن اخفاء ارائهم ومقاصدهم ، ويعلنون صراحة ان اهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بدك كل النظام الاجتماعي القائم بالعنف . فلترتعش الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية ، فليس للبروليتاريا ما تفقده فيها سوى قيودها واغلالها ، وتربح من ورائها عالما باسره » (٨) .

اذا كانت هذه هي وجهة النظر العلمية ، فاننا مطالبون بان نكرس مناسبة الاول من ايار للوقوف امام اوضاعنا العربية اولا وفي الاساس لكي تساعدنا معرفتنا لها على فهم الظروف العالمية التي ترتبط اوضاعنا ارتباطا جدليا معها .

ان احتفاءنا بالاول من ايار ينبغي ان يكون حافزا لفهم طبيعة المرحلة الراهنة التي نعيشها عربيا ، واستخلاص اهم ما فيها وتبيان ملامحها وتحديد معالم « الجديد » الذي ينمو في احتسانها ، والذي يحتم على القوى الماركسية — اللينينية الثورية ، التي تقتدي بوجهة نظر لينين القائلة : « ان ما يميز الماركسي الثوري عن المبتذل والبورجوازي الصغير هو ان الماركسي الثوري يعرف كيف يروج بين الجماهير الجاهلة لفكرة ضرورة الثورة التي تنضج ، ويقدم البرهان على حتمية نشوبها ، ويوضح فائدتها للشعب ، ويحضر لها البروليتاريا وجميع الجماهير الكادحة والمستثمرة » (٩) ... ان القوى الماركسية — اللينينية الثورية خاصة والقوى الثورية على وجه العموم ، مطالبة بان تجعل من نشاطها السياسي والفكري مقرونا بممارسة ثورية تستهدف اخراج « الجديد » الذي ما يزال كامنا لكي يمكنها ان تواجه القوى المعيقة لتطورنا ، مواجهة تصبح معها هي النقيض الثوري والبديل السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعسكري الحتمي ، للانظمة العربية العاجزة عن توجيه تطورها في افقه الصحيح.

ان نظرتنا الى واقعنا الراهن ، لا يجوز ان تكتفي بوصفه وتفسيره فقط وانما يتحتم علينا ان نجعل من تفسيرنا لهذا الواقع ، دليلا نظريا لنضالنا الهادف احداث التغيير الجذري الذي من اجله بذل الجهد النظري لتفسير الواقع المراد قلبه وتغييره !

من هنا فاننا سنشير الى ابرز ما يميز الوضع الدولي في يومنا هذا ، اشارة ننطلق منها لالقاء نظرة على اوضاعنا العربية الراهنة .

اندحار الامبريالية وعملائها امام الثورة الاشتراكية

عندما حددنا ابرز سمات الوضع الدولي الراهن، على صفحات هذه المجلة بخمس سمات اساسية : « صمود الاشتراكية وصعودها اولا وانهيار الامبريالية وتفاقم ازمتها العامة ثانيا وعجز برجوازية بلدان القارات الثلاث عن استكمال انجاز مهمات الثورة الوطنية الديمقراطية ، وازدياد ميلها الموضوعي للتحالف مع الامبريالية ثالثا ، ولجوء الراسمالية المعاصرة الى تكييف اوضاعها وتغيير اسلوبها ، لكي تواصل الصراع من اجل تحقيق هدفها القديم : « الحاق الهزيمة بالاشتراكية وضمان استمرار استعمارها للشعوب رابعا ، وان الطبقة العاملة في بلدان القارات الثلاث ، « مطالبة » باخذ زمام قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية بغية الانتقال بها الى الاشتراكية خامسا » (١٠) ...اقول عندما حددنا ابرز سمات الوضع الدولي ، تصور البعض اننا بالغنا في التفاؤل ، بيد ان احداث اليوم ان تجلت عن شيء ، فانما تتجلى عن كل ما يؤكد طبيعة عصرنا الراهن ، وهو الامر الذي ركزنا عليه في مقالنا الانف ذكره . وبدون العودة الى الموضوع ، فان نظرة سريعة لرؤية ابرز ما يميز الوضع الدولي في يومنا هذا، لن ترى غير ما رأيناه. فاذا تجاوزنا الحالة الخانقة التي تعيشها الراسمالية المعاصرة ، والناجمة عن تفاقم ازمتها العامة، لدرجة لم تشهد لها مثيل من قبل ، حيث ادى تفاقم الازمة الاقتصادية ، الى احتدام التناقض بين العمل وراس المال ، اي بين الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية في البلدان الراسمالية — الامبريالية ، وبالتالي ازدياد موجة الاضرابات العمالية التي تخوضها الطبقة العاملة تحت ضغط البطالة وازدياد انعدام توفر فرص العمل للشغيلة ، لحد بلغ معه عدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة الاميركية وحدها ، عشرة ملايين عامل ، وهو رقم لم يسبق له مثيل في تاريخ الولايات الاميركية الحديث ،